منوعات

حديث مع هارون الرشيد

بقلم عبد ربه

(١)

قرأت البارحة في مجلة الهلال حديثاً طريفاً للاستاذ العقاد تحدثه مع هارون الرشيد . وكانت لي عليه بعض ملاحظات كانت مثاراً لكثير من الاخيله والاحلام اطاقت بي فنقلتني الى هارون الرشيد والى عصره والى دار ملكه . فقد رأيت فيما يرى النائم . كأني اتمشى في طرقات مدينه السلام ـ ومدينة السلام ـ هي المحلة التي تضم قصور خلفاء بني العباس في بغداد . وكأني في العقد الثامن من المئة الثانيه للهجرة وكانت تلك الممرات الضيقه مغطات بالمرمر اللماع تطل عليها شرفات تلك القصور الشواهق . وقد افضى بي الطريق الى رحبة واسعة كان في صدرها قصر عظيم يرى كأنه اعظم قصر في تلك الرحبه وله باب شاهق وعلى جانبي الباب دكتان من المرمر المجزع .

وقد خطر لي بعد طول السير ان استلقي على احدى الدكتين لاستريح بعد الجهد والتعب . فانتزعت مزودتي وتوسدتها واستلقيت لانام . وما كادت تغمض عيناي حتى احسست كأن يداً توقظني برفق وتؤده . وفتحت عيني واذا بي امام دمية من القار . ثم تبينت عندما حركت شفتيها انها جارية لادمية . كانت شديدة السواد حتى كأن ليل العاشقين اخذ سواده من بعض سوادها . وكاد يفز عني منظرها لولا ماشاهدته عليها من قلائد اللؤلؤ واساور الذهب المحلات باكرم الاحجار واثمن الجواهر . وقد ابتسمت عن ثغر لماع كأنه بعض قلائدها . وقالت لي . ماالذي جاء بك الى هذا الباب وكيف عميت عنك عيون الحرس والحجاب ؟ قلت لها وهل في وجودي هنا من ريبه . اني ـ يابنت الليل ـ غريب لا اعرف من امر هذه الابواب شيئاً . وكم حملت الغرباء اقدامهم الى حيث لايعلمون . ثم قلت لها : اين انا الآن ؟ فابتسمت وقالت : في باب قصر الحريم امنع قصور امير المؤمنين . فقلت لها ومن هو امير المؤمنين ؟ فعضت على شفتها وقالت: افي الدنيا امير للمؤمنين غير مولاي هارون الرشيد ؟ فعلمت الامر حينذاك وهممت ان اذهب لسبيلي . غير انها استوقفتني وقالت ان امير المؤمنين اطلّ من روشنه وشاهدك في هذا المكان فامرني ان اجيء بك اليه . ثم انها اخذت بيدي وادخلتني قصراً كفتني قصص الف ليله وصفه . واصعدتني سلماً من المرمر اشتبكت عليه اغصان الورد والرياحين ومن فوقها انواع الطيور والقماري تزقزق وتغرد . حتى وقفنا على باب غرفة ففتحته وادخلتني وتراجعت . وقد جلس في صدر تلك الغرفه على اريكة من الحرير الخالص مطرزة بالذهب واللؤلؤ رجل لم ار في حياتي اصبح منه وجهاً ولا اعظم منه هيبة . تضوع منه روائح المسك والعنبر . فكدت ان يغمى على من الرهبة . لولا انه تداركني بابتسامة خفيفه ثم اشار لي ان اجلس على اريكة اخرى قريبة منه . فجلست . ثم قال لي الست مسلماً ؟ قلت بلى ياامير المؤمنين فابتسم وقال لماذا اذاً لم تسلم والسلام سنة المسلمين . قلت. ذهلت يامولاي فابتسم مرة اخرى وقال لاعليك ياغريب . كن مطمئناً كانك في بيتك وبين اهلك ولا حشمة بيني وبينك بعد الآن . فانبسطت واطمأنت نفسي . ثم قال من اي بلد انت ؟ قلت من النجف قال ـ وقد قطب حاجبيه ـ علامة المستفهم المستغرب ـ : من النجف اني لااعرف في بلاد الاسلام كلها بلداً بهذا الاسم واخشى ان تكون هذه من بلاد الفرنجه وان تكون قد كذبتني . الم تقل انك مسلم ؟ قلت بلى ياموالاي قال . اذاً انت من بلاد الفرنجه اذ الكفار فليس لهؤلاء سلطان على ديار المسلمين . وليس في ملكي مدينة بهذا الاسم . فاني اعرف جميع المدن التي املكها . ولا يخفى علي شيء منها . قلت ياموالاي النجف تبعد عن الكوفة غرباً عشرة كيلو مترات والكيلومتر يساوي الفي ذراع فهي تبعد عن الكوفة عشرين الف ذراع من جهة الغرب . فاستغرب مرة ثانية وقال : اني اعرف هذا المكان الذي تحده جبانة الكوفة شرقاً . وديار المناذره جنوباً وهي أرض لازرع فيها ولاضرع . اسمها الغري اوالغريان مررت بها منذ سنتين وكنت اطارد صيداً فاستوقفتني في هذه الارض اكمة وقف عندها الصيد المطارد كأنه يستجير

بها . وقد استغربت هذا الامر فاستدعيت عرافي الكوفة وشيوخها وسألتهم عن امر هذه الاكمه . فاخبروني انه قبر ابن عمي علي بن ابي طالب . فبنيت عليها بنية بسيطة احياء لاثره وليس في ذلك المكان سوى تلك البنيه . فاي مدينة فيها ؟ وكيف نشأت في هذا الزمن القصير ؟ وكيف اغفل امرها عاملنا الحسين بن عامر ولم يكتب لنا عنها شيئاً . فقلت يامولاي واي عامل هذا ومن يكون ؟ قال لي غريب امرك والله الا تعرف عاملنا على الكوفة الحسين بن عامر واخالك لاتعرف ايضاً قاضينا هناك سعيد بن حمزه . وصاحب شرطتنا يسار بن الاشعث . قلت كلا ياامير المؤمنين لااعرف منهم احدا ولا توجد مدينة اسمها الكوفة اليوم . انما هناك قرية انشئت حديثاً والى جنبها طلول واكم يقال لنا اذا مررنا بها انها كانت في سالف الزمان مدينة اسمها الكوفة . فبرقت عيناه لقولي هذا استنكاراً واستغراباً فقلت لاتستغرب يامولاي من قولي هذا شيئاً فان في الامر لسرا عجيباً إني لست من ابناء جيلك وانما انا من ابناء القرن الرابع عشر للهجره وان الدنيا بعدك قد تغيرت وان الاحوال قد تبدلت واني اعيش في زمان يبعد عن زمانك اثني عشر قرناً . فذهل لسماع هذا الكلام وكانما سرى عنه بعض الهم فقال والله لااخالك الا صادقاً فيما تقول فان لسانك وهو عربي غير لساننا ونحن عرب ايضاً ولم ار لهجتك هذه شبهاً بهجة مسلم او بزة فرنجي ممن وفدوا علي . وطأطأ راسه كانما يتأمل . ثم تمتم قائلا . انه سحر او انه حلم . الله يعلم ايها . ثم رفع رأسه وقال لي . كيف هي دنياكم يابناء القرن الرابع عشر ؟ وهل قرأتم مادونه مؤرخونا عنا من الاخبار ؟ قلت نعم وقد قرأت الطوال منها والقصار . وكانت شخصية امير المؤمنين المع شخصية في تاريخ الدوله العباسيه . والمؤرخين فيكم يامولاي اقوال واقوال . فان جلهم يعوزهم التثبت والتدقيق فيرسلون الاخبار كما هي . واخر ماقرأته عنكم هو مقال كتبه رجل من اهل زماننا اسمه عباس بن محمود العقاد . وهذا الكاتب حجة في روايته متثبت مدقق وهو من اشهر كتابنا في هذا الجيل غير اني وجدته مع شدة تثبته قد وهم في مسألة دفنكم فقال (زعم بعضهم انهم دفنوا جثمانك حين ادركتك الوفاة بطوس وكانهم خافوا على قبرك ان ينبشه اشياع علي رضي الله عنه فدفنوك في قبر الامام العلوي لتأمن فيه النبش والمهانه بعد الممات . فمن عجب الدنيا ان يلوذ ابناء علي بملكك الطويل العريض . فيضيق بهم . وان يبحث اتباعك عن ملاذ يحتمي به جثمان صاحب الملك الطويل العريض بعد مماته فيجدوه في في قبر واحد من اولئك الخائرين الالئذين باكناف البلدان في غير قرار ولا اطمئنان) هذا ماذكره العقاد . ويقصد بالامام العلوي . علي الرضا ثامن الائمة عليه وعليهم السلام . والحقيقة هي غير ماذكر العقاد . فان وفاتك كانت في سنة ١٩٣ هج وانك مت ودفنت في طوس قبل وفاة الامام العلوي علي الرضا بتسع سنين وان ولدك المأمون كان في طوس سنة ٢٠٢ عند وفاة الامام الرضا وانه خرج يمشي خلف جنازته حاسراً حافياً وهو ينادي لاي المصيبتين ابكي . لفقدي اياك — يعني الامام — ام لاتهام الناس اياي بقتلك . ثم دفنه معك في قبرك مغالاة في تكريمه وارضاءاً لشيعته . وقد صار لهذا القبر شأن عظيم فان لمسلمين يزورونه اليوم من اقصى البلاد تقصده متبركة بتربه وهو اكثر قبور الارض زواراً واعظمها بناية وعليه قباب من الذهب الخالص وقد زخرفت جدرانه بالاحجار الثمينه ولا تغلق ابوابه ليلا ولا نهاراً لكثرة المتعبدين والمتبركين والزائرين . فتهلل وجهه فرحاً وسروراً . غير اني فاجأته بقولي : ان هذا الاحتفاء والتقديس ليس لك . انما هو للامام الرضا فقطب وجهه وقال : لعن الله الدنيا . لعن الله الدنيا . ثم قرأ « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » واردف قائلا صدق الله العظيم والعاقبة للمتقين .

النجف — يتبع — عبد ربه .

كلمة شكر

اقدم جزيل شكري وامتناني العظيمين للدكتور الشهم السيد حسين المشاط لعنايته الفائقة بمعالجة والدي معالجة الطبيب الانساني فادعو الله ان يكثر في الاطباء من وامثاله .

المحامي احمد السيد ابراهيم